كلمة التحرير

هل مفهوم التجديد قاصرٌ على ما جرت العادةُ بعدِّه من المسائل ذات "الصبغة الدينية"؟

هذا السؤال مثارُه جملةٌ من الملاحظات والتنبيهات التي وردت إلينا من عدد من المهتمين بالمجلة والمتابعين لما تنشره، ومنقاشاتٌ دارت بين الزملاء في هيئة التحرير في أحد اجتماعاتها قبل وقت غير بعيد. وهو في الحقيقة سؤال ينطبق بالقدر نفسه على مفهوم الاجتهاد الذي كثيرًا ما ينصرف الذهنُ حياله إلى الفقه بوصفه المجالَ التقليدي الذي انبثق فيه وارتبط به مصطلحُ الاجتهاد.

وقبل أن نحاول وضعَ هذه الإشكالية في إطارها الصحيح والمناسب فكريًا وتاريخيًّا، يحسن أن نؤكد أن هذين المصطلحين أو المفهومين مفهومان متضايفان ومتلازمان، ولذلك يصعب تناول أحدهما دون الآخر، أو الحديث عن اجتهاد لا يترتب عليه تجديد، أو الكلام على تجديد لا يستند إلى اجتهاد. فهما وجهان لعملة أو عملية واحدة. وبعبارة أخرى، فالعلاقة بينهما إنما هي علاقة علة ومعلول أو سبب وأثر؛ ذلك أن التجديد والتجدد هو مَجْلَى

الاجتهاد ومظهرُه في حياة الأمة بجوانبها المختلفة ومستوياتها كافة.

ومن ثم فالتجديد – كما الاجتهاد – ذو معنى متعدد في أبعاده وشامل في مداه ومغزاه. ولئن سبق لنا أن أبرزنا ذلك في افتتاحية العدد السابع عشر فلا ضير في أن نعيد الكلام في الأمر رفعًا لما قد ينشأ من التباسِ فكرٍ أو يسبق إلى الذهن من معتادِ معنى ودارج فهم. إن شمول معنى التجديد والاجتهاد ينبثق من شمول تعاليم الإسلام ذاتها: في أصول الاعتقاد ونظام الأحكام ونسق القيم، تلك التعاليم التي أرادها جاعلُها سبحانه وتعالى مستوعبةً لأبعاد الحياة الإنسانية كلها على مستوى الفرد والجماعة. ولذلك فإنه من قصور الفكر واختزال الأمور، بل إنه لمن سوء الفهم حصرُ معنى التجديد ومغزاه في نطاق الفقه بمعناه التشريعي القانوني الضيق أو حتى في نطاق ما اصطلح عليه باسم "العلوم أو الدراسات الشرعية"، فذلك نهج مجاف لرؤية الإسلام التوحيدية ومصادم لوجهته الكونية ومنافر لطبيعته الشمولية.

وإن تاريخ المسلمين في عهود نهضة مجتمعهم وازدهار حضارتهم ليقدم شهادة حية على حضور مثل هذا الفهم لمعنى الاجتهاد والإدراك لمغزى التجديد وتأصلهما في سياق الحركة العلمية الزاخرة التي انداحت خلال قرون عديدة لتشمل ميادين المعرفة والفكر والثقافة جميعاً وجوانب الحياة كافة، ف نشط العقل المسلم اجتهاداً وتجديداً وإبداعاً في سائر العلوم الحكمية الفلسفية والنقلية الوضعية (بمصطلح ابن خلدون): من تفسير، وقراءات، وحديث، وفقه وأصول، وكلام، ولغة ونحو وأدب، وفلسفة ومنطق، وطب، ورياضيات وفلك، وغيرها من الفنون التي راجت في الملة الإسلامية ونفقت سوقها في أقطارها.

إن مثاراتِ الاجتهاد ومطالبَ التجديد في حياة المسلمين في الوقت الحاضر – وهم يناضلون من أجل استئناف نهضتهم الحضارية – ليست أقلَّ شمولاً ولا أضيقَ مدًى ولا أهون خطرًا منها في ماضي تاريخهم ومتقادم عهودهم. بل إنه ليمكن القولُ إن الأمر الآن أشدُّ إلحاحًا، وأكثرُ شمولاً، وهو من ثم لا يحتملُ النظرَ الأحادي في التقدير، ولا النهجَ التجزيئي في التناول، ولا المترع التلفيقي في العلاج، وكل محاولة تتم في أفق الأحادية والتجزيئية والتلفيق لن تزيد الوضع إلا تفاقمًا والأزمة إلا استفحالا.

وطالما اقتصرت أنظارُ الاجتهاد وجهودُ التجديد على مظاهر الأزمة المتراكبة التي ما انفكت الأمة تعاني منها وتنوء تحت وطأتها طوال تاريخها الحديث، وطالما اكتُفيَ بالوقوف على بعض جوانبها دون سائرها، وما لم تتصوب تلكم الأنظارُ والجهود إلى الجذور الغائرة والأصول الراسخة التي منها تتغذى تلك الأزمة وعنها تتفرع مظاهرُها المختلفة وتتوالد تجلياتُها المتنوعة، فإن آمالَ الإصلاح وتطلعات النهضة لن تكون إلا مجرد أحلام قد تتحول في بعض الأحيان إلى كوابيس مرعبة وأحلام مزعجة؛ بسبب الإحباط الذي لا يخطئه البصر فضلاً عن البصيرة والذي يتخذ صوراً وأشكالاً شتى في حياتنا الراهنة.

إن وضع الأمة الذي يقتضي تعديلُه وإصلاحُه مثلَ هذا الفهم لمعنى الاجتهاد ومثل هذا الإدراك لمغزى التجديد، وضعٌ قد تضافرت على تكوينه وتناصرت على تشكيله عواملُ شتى، بعضُها من موروث عهود انحطاط المسلمين ودخولهم مرحلة ما بعد الحضارة حسب مصطلح المرحوم مالك بن نبي، وبعضها من موروث عهود الاستعمار بما تركه من آثار بعيدة في حياة

المسلمين بثقافته وسياساته ومؤسساته. أما بعضها الآخر – وربما كان هو أنكاها – فقد تولد من انعدام الرؤية، وفقدان الوجهة، واضطراب الفعل، وتبعثر الجهود، وهي حالة صبغت بأقدار متفاوتة – ولكنها تكاد تكون مطردة – مرحلةَ ما بعد الاستعمار، أو ما اصطلح عليه بالاستقلال، وإن كان في ذلك الاصطلاح للرأي مجال!

في ضوء ذلك يستبين لنا مدى قصور النظر وخطل الرأي اللذين يقع فيهما كثير ممن يرفعون أصواتهم – أفراداً ومؤسسات – متنادين بضرورة إصلاح التعليم وتخصيصًا ما سُمِّي بالتعليم الديني في المجتمعات الإسلامية، بحسبان أن جذورَ ما يسمى بالتطرف والإرهاب ناشبةٌ فيه وأسبابه عائدة إليه. ومن ثم فهم يحسبون وهماً منهم وسوءَ تقدير أن تعديلَ مناهج ذلك "التعليم" وتقليلَ ما فيه من "جرعات دينية" واستبعادَ ما به من "عناصر باعثة على الكراهية" وتعويضَها بأخرى "داعية إلى التسامح والمحبة"، فيه البلسمُ الشافي والعلاجُ الكافي!

وليس هناك أبعدُ عن الصواب وأكثرُ تعاميًا عن الحقيقة من هذا التقدير، فلا ما أُسمي بالتعليم الديني هو المحضن الوحيد ولا حتى الرئيس للتنشئة الاجتماعية، والتهيئة الفكرية، والتكوين الثقافي، والبناء الذهني للأشخاص في مجتمعات المسلمين، ولا الأفرادُ أو الجماعات التي تُوصم بالتطرف والإرهاب أو يُتَوقع ذلك منها كلُّها أو حتى أغلبها من تفريخ مؤسسات ذلك التعليم. وفوق ذلك كله، أليس ما يوصف بالتعليم الحديث (لكي لا نقول التعليم اللاديني أو العلماني الدهري) بفلسفته ومنظوره، ومؤسساته ومناهجه، وسياساته وإدارته، هو الآخر يعاني من أزمة حادة قد تكون في بعض جوانبها

أشدَّ من أزمة سواه؟ فإذا كان التعليمُ الديني في بعض مظاهره ومؤسساته وتوجهاته يعيش حالة انفصام عن الواقع وغياب عن الحاضر، فإن مقابلَه — التعليم الحديث — يعيش هو الآخر حالة اغتراب ثقافي وغيبوبة تاريخية عن البيئة الإنسانية والاجتماعية التي تحيط به، مما جعله في كثير من الأحايين يواجه مشكلة انعدام أو فقدان الوظيفة.

على أن التعليمَ ليس هو المجال الوحيد الذي يشكو من هذه الحالة من الاغتراب وفقدان الوظيفة، فكثير من المرافق "الحديثة" لمجتمعات المسلمين في السياسة والاقتصاد والإعلام والترفيه إلخ، تعاني بصورة أو بأخرى من مثل ذلك الاغتراب واللاوظيفية، فضلاً عن تذبذب القصد وتردد الوجهة. وذلك هو ما يفاقم بُؤَرَ التوتُّر ويزيد حجمَ الضغط في المجتمع، ليولد في نهاية المطاف حالاتِ انفجار خافتٍ أحيانًا ومدوٍّ أحياناً أخرى. بيد أن عقليةَ الهروب إلى الأمام، وعدمَ الصدق والأمانة في البحث عن الحلول، والأنانيةَ والحرصَ على مجرد المصالح الضيقة للذات والأنا الفردية، والخوفَ من مواجهة الحقيقة، وعدمَ الاستعداد لتقبل مقتضياتها وتحمل تبعاتها، ذلكم هو في الواقع ما يمد في عمر الأوضاع المتردية ويفاقم الأزمة ويؤدي إلى إعادة إنتاجها حيناً بعد حين بصور وأشكال أشد حدةً وأكثر هولاً، مهما تعددت المظاهر واختلفت التوصيفات.

وليس من مخرجٍ من ذلك كله إلا بضرْب من الاجتهاد والتجديد يزكي الضمائر من دنسها، ويخلص العقولَ من تبلدها وانحسارها، ويصَفِّي الثقافةَ مما استقر بها من أفكار ميتة وأخرى قاتلة (كما دعا إلى ذلك بن نبي)، ويطهر العلاقات من أوضارها، ويحرر المؤسساتِ من عطلها. ولذلك فإن هذه المجلة التي

نشأت وترعرعت في كنف الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا منبرٌ مفتوح لتناول إشكالية التجديد وفق هذا المفهوم الواسع الذي حاولنا إبرازه وتأكيده، بحيث لا تقتصر فيما يُنشر فيها من بحوث ودراسات ومقالات ومراجعات وتقارير على ما اعتِيدَ عدُّه من مسائل التجديد "الديني"، وإنما يقصر بها عن ذلك ما يتوافر بين يديها فعلاً من مادة صالحة للنشر، مهما تفاوتت في صرامتها المنهجية ودقتها العلمية وأصالتها الفكرية.

والله نسأل أن يسدد منا الخطى، وينور منا البصائر، ويجنبنا مزالق الردى، ويهدينا سواء السبيل في القول والعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.